على ثلوج (حِزْرين)

للأســـتاذ على الطنطاوى

— ٢ —

قالت :

بدأت هذه القصة منذ أربعين سنة ، ولم تكن هذه الضهور[١] موحشة مقفرة كما تراها اليوم ، ولم يكن القصر مهجوراً خرباً ، بل كان حافلا بالأنس ، فياضاً بالنعيم ، يمرح فيه الصِّبا ، ويضحك الطهر ، وإن كان قدخلا من هيبة السلطان ، وهجره الجند والأعوان ، بعد ما قضى بـ (مذبحة عين داره)[٢] الأمراء التنوخيون سادة الجبل ، ودالت دولتهم وذهبت أيامهم ، فلم يبق لسيدى الشيخ ناصر رحمه الله (مشيخة) بعدهم على هذى البقاع ، وكان هو (شيخها) وحاكمها — فما خلا من النبل والفضل ، ولا هجره العافون ولا الوافدون ، بل كانوا يؤمونه أبداً فينصرفون وقد حفل وطاب كل واحد منهم بمايشتهى ومايريد من مال الشيخ ومن طيب قلبه ، ونبل نفسه ، وإشراق وجهه ، فكان مجده فى عزلته أكبر من مجده فى إمْرَته .

وكانت ربَّة القصر قد مضت جميلة طاهرة كزنبقة الجبل ، شابة ناضرة كطلائع الربيع ، وكانت تنشر عطر الحب أينما سارت فتترك حبَّها فى كل قلب ، فلما تولت أبقت فى كل قلب أعطر الذكريات ، وأحرَّ اللوعات ، ورعى سيدى الشيخ عهدها ، وحفظ ودَّها ، فلم يحلَّ محلها من قصره أو فؤاده امرأة غيرها ، ووقف نفسه على ولديها : علام وليلى ، فكان لهما من بعدها أباً وكان لها أماً ، ولم يكن فى القصر امرأة إلا أنا ، وكنت غضة الإهاب ، ريَّانة الشباب ، فكنت أقوم على خدمتهما وتربيتهما .

وكنا نعيش سعداء لاندرى ما الهموم ، ولا نسأل عن الغد ، كنا كالمسافر يقف على العين الباردة ، يتمتع بالماء العذب ، والظل الظليل ، ثم يسير لا يحمل معه قربة من ماء ، ولا يتزود زاداً ، لأنه لا يعلم أن الطريق أمامه شمس كاه وعطش وجوع وضلال ، ولا بدَّ له من سلوك هذا الطريق ...

كانت حياتنا كالبركة الساكنة ، ولكن الأيام ألقت فى بركتنا حجراً كبيراً ، أزعج سكونها ، وعكر ماءها ، فلم تصفُ من بعدُ أبداً ، وكان الحجر الذى رمتنا به الأيام غلاماً قذراً حمله سيدى من أزقة بيروت ...

وهنا تبدأ القصة التى أروى لك مقاطع منها ، لأنها لا تروى كلها : ومن يستطيع أن يروى قصة حب ، بكل ما فيها من عواطف وأفكار ، وآلام وآمال ؟

إن النفس البشرية أعمق من البحر ، فمن دخل البحر غرق فيه فلم يخرج منه ليخبر عما رأى ، ومن وقف على الشاطىء لم يلمس منه إلا الزبد الذى يحمله إليه الموج ، وإن أعظم القصص التى كتبها الأدباء ، لم تكن إلا زبداً يلقيه الموج إلى الشاطىء ، أما اللجة الكبرى فلم يصل إليها قلم أديب ، ولا غاص على جواهرها ، ولا وصل إلى عجائبها .

هل رأيت الأفق عند الغروب ، والشمس تلونه كل لحظة بلون ، تخلق فيه عجائب لم تعرفها الأرض ثم تبيدها وتأتى بغيرها ، وتخط فيه خطوطاً سحرية بألوان ما عرفها الفنُّ ثم تمحوها وترسم سواها ، كذلك النفس البشرية ، إنها تبنى وتهدم فى (الثانية) من الأفكار والعواطف ، والخواطر والتأملات ، مايعجز أدباء الأرض جميعا عن حبسه فى القرطاس . فكيف يصف حياة امتدت أربعين سنة ، من عجز عن وصف حياة ثانية واحدة ؟ وكيف يصوِّر ألوان النفس الخفية من لم يستطع أن يصوِّر ألوان الأفق الظاهرة ؟

إن الأدباء لم يأخذوا من قصص الحياة إلا حوادثها ، وما الحوادث ؟ ما خطرها ؟ إنها جسم القصة ، فهل رأيت محباً يقتل حبيبته ثم يمانق جسدها يحسب أن الجسد هو الحبيبة ؟

هذا ما يصنعه الأدباء !!

* * *

أروى لك حوادث هذه القصة وأدع لك أن تفهم ما وراءها ، وأن تلمس بيد بصيرتك روحها حتى لا تكون جسما بلا روح ،

---

(١) الضهور جمع ضهر : وهوظهر الجبل من عالى لبنان الفصيح .

(٢) يسأل عن خبرها الرجل الذى لم يبق من سلالة الأمراء التنوخيين إلا هو وآله فهو ذو الاماوتين : إمارة الأدب وإمارة النسب ، صديقنا أبو قيس عز الدين علم الدين التنوخى .

وأن تسمعها بأذن نفسك لا بأذن رأسك ، فإن النفوس متشابهات ورب إشارة أو كلمة أدلّ عند النفس من كتاب ضخم عند العقل .

بدأت حوادث هذه القصة يوم عاد سيدى الشيخ من بيروت راكباً فرسه ، إذ لم تكن قد وطئت حرم الجبل الأشم هذه السيارات ... وقد لفّ عباءته على غلام وضمه بين يديه لا يبدو منه إلا رأسه ؛ فلما وصل كشفها عنه فإذا غلام (شحاد) عمره نحو عشر سنين ، وسخ الجسم ، قذر الأسمال ، فقال لنا :

— إنى وجدته فى رأس بيروت يهم بأن يلقى نفسه فى البحر فحملته معى

وجعل الولد يتفلت منه كأنه قط وحشى يريد أن يفرّ من الصياد ، فشد يده عليه ، ودفعه إلىّ وقال لى :

— خذيه فأطعميه .

ويا ليته تركه يرمى بنفسه فى البحر ، أو يا ليته خلّاه ليهرب ولا يعود ، إذن لما شقينا به ولما شقى بنا أربعين سنة كوامل ، لم نستمتع فيها بشباب ، ولم نعرف فيها السعادة ولا الاطمئنان .

وسحبته من ذراعه ، وهو يحاول التملص منى ، ويعضّ يدى ، وينطحنى ويثبت قدميه مستعصيا بالأرض كالتيس العنيد ، حتى بلغت به المطبخ ووضعت له الطعام فأكل أكل من لا يخشى القزر[1] ، فلما شبع عدت به إليه — وكان يحدث الولدين ويدفع إليهما هداياه التى طلباها منه : القيثارة للصبى والسوط المرصع اليد للبنت — فلما رأته ليلى ، قالت :

— بابا . إنه قذر .

ورحمته . أما علام فقد أبغضه منذ اللحظة الأولى .

فقال لى سيدى الشيخ :

— خذيه فأغسلى جلده ، وألبسيه .

ففعلت فرأيته قد استحال إنساناً آخر ، وخيل إلىّ أنى لمحت على وجهه وميض نبل قديم ، فلما أنعمت النظر فيه وجدته قد انطفأ وعاد وجها عادياً لغلام وضىء رائع المحيا .

وعدت به إلى الشيخ ، فسرّ به وقال :

— لقد أسميته (هانى) وجعلته منى كولدى .

ونظرت إلى الولد فأبصرت عينيه تدمعان ، ثم رأيته يسرع إلى الشيخ فيخبىء وجهه فى طيات جبته ويبكى ، يعبر بالدمع عن الشكر الذى يقصر عن التعبير عنه اللسان .

وكانت ليلى ترمقه باسمة ، أما علام فكان يأكل قلبه البغض ويجلّل وجهه الغضب .

***

ومرت الأيام ، وألفته ليلى إذ كان فى مثل سنها وألفها ، أما علام فلم تزده له الأيام إلا كرهاً ، وكان الشيخ قد اشترى لكل من الثلاثة فرساً ، فأقبل علام يوماً على هانى وكان يساير بفرسه ليلى ، فقال له آمراً :

— انزل عن الفرس وهاته ، فإن فرسى قد أصابه الدرج .

فأبى ، فسبّه وأخذ الفرس منه قسراً ، وآله عدوانه عليه ، وأنساه كرم الوالد أصله ، وأنه لقيط من الطريق ، وأن (علام) هو الولد والوارث والفرس فرس أبيه ، وأنه أكبر منه سناً ، وأقوى ساعداً ، فهجم عليه يريد أن يسترجع الفرس منه فضربه علام على وجهه وصدره ، ثم أخذ حجراً ضخما فرماه به ، فشجه وكاد يقضى عليه ، لولا أن أقبلت ليلى تدافع عنه بسوطها ، تنزل به على وجه أخيها حتى حجزته عنه ...

فى هذه اللحظة ولد المخلوق الجبار الذى اسمه الحبّ .

أشفقت عليه ، وشفقة الفتاة على الفتى الجميل بذرة الحب تختفى فى قلبها ، فلا تحسّ هى بها ، كما تختفى حبة الصنوبر الصغيرة فى حدور الجبل تطؤها الأقدام ، وتتجاوزها الأبصار ، ولا يدرى بها أحد ، ثم لا تلبث أن تكون شجرة باسقة الفرع ، ممتدة الأصل ، شامخة الهام .

وجعلت تواسيه فيعرض عنها ، يستحى رجولته (الصغيرة) أن تراها كليمة مهزومة ، وهى تلح عليه ، حتى قالت له :

— هلم نقطف (أزهار الجبل) .

فأبى . فرفعت ذيلها وانحنت له متشبهة بالعقائل على عادتهن فى تلك الأيام ، فاستلّت بدلالها غضبه ، وابتسمت فأنارت بابتسامتها قلبه ، فأطاعها وغلبت أنوثتها رجولة الرجل ... ولا تزال المرأة غالبة ما حاربت بالأنوثة ، فإن زهدت فيها وحاولت أن تجارى الرجل فى ميدانه ، وتسابقه فى حلبته ، وتقاتله بسلاحه ، استكت ركبتاها ، وكلت قدماها ، وعجزت يداها ، وسقطت .

(١) القزر من العامى الفصيح وفى المسائل : (كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر) .

ومسحت دمه ، وعصبت جرحه ، وأركبته فرسها ، ومشت به الهوينى ، تلقى فى أذنه كلاماً من كلام الطفولة العاشقة ، ترفعه فى عين نفسه ويحقق فيه عندها ما تتمناه هى فى رجل أحلامها ، ولكل بنت حلم ولو كانت بنت عشر ، ولا يخلو حلم بنت من رجل ، ولو كان (رجلا) ابن عشر ! حتى إذا اقتربا من هذه الصخرة التى تراها قائمة على شفير الوادى ، كأنها قلعة من قلاع الجن ، أمامها خندق لا تبلغ قرارته الشياطين ، ولا تصل إلى ذروته المردة ، قالت له :

- اسمع ما أنت بالوضيع ولا اللقيط ، أنت سليل الأمراء التنوخيين ، أنت الذى نجا يوم (عين دارة) وهذا قصر أجدادك .

فنظر مشدوهاً ، وقال : هذه صخرة !

— قالت : كلا . أنعم النظر إنها قصر أجدادك ، وهذا الفارس الأسود بالباب يمنعك من دخوله فخذ هذا السيف واعد إليه فاقتله ، اعْدُ ... اعْدُه ...

— قال : هذا سوط !

فصاحت متحمسة ، وضربت الأرض دلالا بقدمها ، وانتثر شعرها الذهبى ، وزادها الغضب جمالا على جمالها ، فأراه غضبها الصخرة قصراً ، والسوط سيفاً ، وأى رجل لا تخدعه الجميلة عن الأوهام حتى يراها حقائق ، ولا يندفع من أجلها إذا دفعته إلى المهالك ؟

وعثر به الفرس ، وكاد يهوى إلى الأعماق المظلمة ، ولكنه قفز إلى الأرض ، وانطلق يقارع بسوطه الهواء ، وهو يرى أنه يجالد الفارس الأسود ، حتى إذا قتله ... مسح سيفه من دمه ... ووضع قدمه على عنقه ... وصرخ بها صرخة الظافر ، فأقبلت إليه وقالت :

— أنت الملك ، وأنا أمتك .

— قال : بل أنت مليكتى .

وانحنى أمامها فقبل يدها ، وذهب يقطف زهور الجبل ليصنعها لها تاجاً ...

ونما الحب الوليد فجأة ، فكانت له قوة هذه الصخرة وسموها ، وله طهارة هذه الثلوج ونقاؤها ، وله خلود هذه الجبال وبقاؤها .

***

قال صديقى :

وسكتت العجوز حيناً ، ثم قالت لى :

— انظر إلى ما تحت قدميك .

فنظرت وإذا أفتن منظر وقعت عليه عينا سائح وأبدعه .

قالت :

— هذا هو المشهد الذى كنت تراه فى ظلام الليل أسود مخيفاً ، يبعث الرعب ، ما تبدل ، ولكن غابت عنه الشمس فاستحال جماله قبحاً ، وكذلك الدنيا : تكون فى عين سوداء وفى عين بيضاء ، وتكون يوماً حلوة حبيبة ، ويوماً مرة كريهة ، ولقد اسودت دنيانا منذ مات سيدى الشيخ ، وغربت عنها شمسه المضيئة فشملها الظلام ، وذهبت منها حلاوة نفسه ، فصارت مرة لا تطاق .

تبدلت هذه (الدنيا) مذ مات ، وشب الصغار ، فلم يعد فى القصر ثلاثة أطفال يلعبون قد ساوى بينهم كرم الوالد ، بل سادة وخدم ، وظالم ومظلومون ، سار علام سيد القصر ، فكشفت منه السيادة عن نفس عبد ، وأظهر السلطان منه طبع سوقة ، فاستبد بأخته واستأثر بالخير من دونها ، وجعل هانى خادم الاصطبل ، وسائس الخيل ، يمسك له فرسه ، وينحنى له ليضع نعله الدنسة على كتفه ليركب ، ويعدو معه فى ركابه ، ويذيقه ألوان الذل ، ويتعمد أن يحمله صنوف الأذى ، وهو صابر من أجل حبه ، وهى ترى هذا فيقطع نفسها حسرات ، ويمزق فؤادها أن ترى حبيبها و (ملكها) ذليلا ممتهناً ، ولا تدرى ما اللذة ولا تعرف طعم الحياة إلا إذا غاب الأخ ، فهرعت إلى الصخرة تسبقه أو يسبقها إليها ، فألقت بنفسها بين ذراعيه ، ما تبالى حطة منزلته ولا وساخة بزته ، لقد كانت هذه الصخرة ملاذهما ، وعش هواهما ، يستندان إليها ، فإذا الصخرة التى كانت صماء خرساء ، قد عاشت بالحب ، وعدتها حياته الخالدة ، فصارت قلباً كبيراً أحنى من قلوب الأمهات ، ولساناً أحلى من ألسنة العشاق ، وعز كل شئ حواليها وغلا ، فالشمس عندها أضوأ فى عينهما من شمس القصر ، والليل أعذب ، والورد أعطر ، والثلج أطهر ، وكان يحس وهو معانقها أن هذه السفوح المتسلسلة إلى سيف البحر ، وهذه القرى المنثورة على السفوح ، وهذه الأحراج المطيفة بالقرى ، وهذه السواقى المنبثقة من الأحراج ، وهذه الذرى العالية ، وهذه الحدور المتتالية وهذا البحر المظلم الذى يمتد حتى يصعد إلى السماء أو تنزل هى إليه ، فيكون البحر سماء والسماء ماء — كل ذلك ملك له وحده!

ويشعر بالقوة قد ملأت نفسه حتى كادت تتفجر نشاطاً واندفاعاً ، وبالعاطفة يكاد يتمزق من طغيانها قلبه ، وأنه لم يعد

يحتمل السكون والانطواء على نفسه بعد ما حركه الحب ؛ فهو يريد أن يصنع المعجزات ، أن يزيح الجبال ، أن يكون قائداً فيفتح بحبها الأرض ، أن يكون شاعراً فيملأ بتقديسها الأسماع ، أن يكون كاتباً فيخلدها بروائع الآداب : بكل مقالة هي أعظم من قلعة يشيدها ملك ، وأمتن منها بناء ، وأعلى ، وأبقى على وجه الدهر ، تتخرب القلاع وهي باقية ، وتنسى أسماء الملوك ، وأسماء قائليها دور في صحائف التاريخ ، وجمال للماضي ...

وتنالها من خمرة الحب مثل نشوته ، وتغيب معه في سكرة الغرام ، فتهمس وشفتاها على خده :

— هل في الدنيا أسعد منا يا هانى ؟ هل في الوجود متعة أعظم مما نحن فيه ؟

— فيقول : نحن الوجود يا ليلى ، نحن المحبة والمحبة سرّ الوجود . هذه الصخرة ما رست هنا منذ الأزل إلا لنأوى إليها ، هذه السفوح ما بسطت إلا لنطل عليها ، والقمر ما طلع من وراء الأفق إلا لينظر إلينا ، والنجوم ما أطلت من فُرج السماء إلا لتناجينا ، والفلك كله يدور من حولنا . نحن قطب الوجود ، أنا وأنت يا ليلى . لقد كنا متحابين من قبل ان نلتقي ، وقبل أن نولد ، وسنبقى متحابين بعد أن نموت ، وهذا هو الحب .

الحب أن يعرف الحبيبة قبل أن تقع عليها عينه ، ويسمع باسمها أذنه : يعرفها في سبحات التأمل في ليالي الوحدة ، في ثوران الميل في أعصاب الشباب ، في خفقات القلب للجمال ، في تطلع الفكر للمجهول ، في فراغ النفس ، في صراخ الأعصاب ، في كل فرحة ، وفي كل ألم ، وكل ذهول هذا هو الحبُّ الضالُّ الذي لا يعرف طريق الحبيب

ليس الحب ضمَّة ولاشمَّة ولاقبلة ، الحب أن يرى المحبوبة فيحس في نفسه جوعاً سماوياً إليها ، رغبة جامحة في أن يفتح قلبه ويضمها فيه ويضمه عليها ، الحب أن تفنى هي فيه ، وأن يفنى هو فيها ، أن لا يفرق بين الحبيبين الزمان ولا المكان ولا الميول ولا الأهواء ، فيكون أبداً معها ، هواه هواها ، وميوله ميولها ، ويكون في رأسه صداعها ، وفي معدته جوعها ، وفي قلبه مسراتها وأحزانها ، وأن تكون له ويكون لها ، وأن يدخلا معاً مصنع القدرة الإلهية مرة ثانية ويخرجا وقد صارا إنساناً واحداً ، في جسمين اثنين . فأين تروى جرعات اللذائذ الحسية هذا الظمأ الروحي ؟ ! إنها كالخل للعطشان ، يشربه فيحرق أمعاءه ، ويزيد ظمأه .

— فتقول له : يا ليتنا نموت الآن يا هانى ، حسبنا هذا من العمر . أو يا ليت الزمان يقف فلا يدور أبداً ، ولا نعود إلى القصر ولا نرى الناس .

— فيقول : ما الناس ؟ وما القصر ؟ كله باطل ! كل ما عند الناس أوهام ! الحق هنا ، هذا وحده الحق ، هذا هو الواقع ، هنا الدنيا !

ويعجز النطق ، وتضيق اللغة ، فيتكلمان باللغة التي يفهمها البشر كلهم ، لأن لغة البشرية ليست لغة أمم ولا أقوام ، اللغة التي ليس فيها إلا كلمة واحدة ولكن معانيها أوسع من كل ما حوت المعاجم ، اللغة التي لا يفهم الرجل عن المرأة ، ولا تفهم المرأة عن الرجل ، إلا بها : لغة القبل !

وتكون وسوستها الخافتة أبلغ من كل ما قال الشعراء.

(البقية في العدد القادم) **علي الطنطاوي**

الهندسة القروية بالدقهلية

تقبل عطاءات عن

١ — إنشاء دورات مياه مساجد نواحي منية محلة دمنة وربع عوام وكفر طناح مركز المنصورة وجديدة المنزلة مركز المنزله لغاية ظهر يوم ٦ أغسطس سنة ١٩٤٧

٢ — إنشاء دورات مساجد نواحي الصفين مركز ميت أشناو ميت معاند مركز أجا وكفر البدماص بالمنصورة لغاية ظهر يوم ٧ أغسطس سنة ١٩٤٧ ويقدم الطلب على ورقة تمغة فئة ثلاثين مليما للحصول على الشروط والمواصفات نظير دفع مبلغ جنيه مصري واحد خلاف مائة مليم أجرة البريد عن كل عملية . ويمكن الاطلاع على الرسومات بالادارة الهندسية بالمنصورة ٧٥٤٦